

الهجرة السرية الى الجزائر من بلدان الساحل الافريقي من اللجوء الى الاستزاق وأثرها على الأمن القومي الجزائري

Clandestine migration to Algeria from Sahel countries from resorting to livelihood and their impact on Algerian national security

عبد القادر كركار (*)

جامعة الوادي (الجزائر)، kerkar-abdelkader@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2022/05/ 23 تاريخ القبول: 2023/02/ 18 تاريخ النشر: 2023/03/ 20

يتناول هذا البحث دراسة ظاهرة الهجرة السرية من بلدان الساحل الافريقي الى الجزائر واسبابها المتعددة وكيف تحولت من اضطرار الى اللجوء الى سعي للاستزاق في الجزائر، وهو ما جعلها مستهدفة في أمنها القومي، خاصة بعد أن أصبحت منطقة الساحل الافريقي فضاء يشهد تهديدات أمنية متعددة الأوجه. وخلصت الى جملة من النتائج أهمها ضرورة العمل على توطيد الاستقرار الأمني في منطقة الساحل الافريقي، وتعزيز القدرات الدفاعية للجزائر لحماية حدودها، وتدعيم حضورها السياسي في الفضاء الافريقي واسترجاع مكانتها.

الملخص

الكلمات الدالة: الهجرة السرية؛ الأمن القومي؛ الارهاب؛ الساحل الافريقي؛ مالي.

Abstract:

This research examines the phenomenon of clandestine migration from The Sahel countries to Algeria, and its multiple causes and how it has gone from having to resort to a quest for livelihood in Algeria, which has made it a target in its national security, especially after the Sahel region became a space of multifaceted security threats.

It concluded with a number of results, the most important of which was the need to work to consolidate security stability in the Sahel region, strengthen Algeria's defence capabilities to protect its borders, strengthen its political presence in African space and regain its position.

Keywords:

Clandestine migration; National Security; Terrorism; Sahel region; Mali.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة:

تعتبر الهجرات البشرية عبر التاريخ صورة لحركية المجتمعات حيث تمثل رافدا بشريا للبعض منها بما تحمله معها من تنوع ثقافي واقتصادي، واثراء للرصيد الحضاري، خاصة إذا كان مصدرها مناطق عرفت ازدهار حضاري سابق، غير ان هذه الهجرة قد تصبح عامل سلبي في الحياة الاجتماعية، وتهديدا للأمن القومي خاصة في نطاق جيو-سياسي يميزه عدم الاستقرار الأمني مع وفرة الثروات الغير مستغلة، فتتم هذه الهجرة بصورة سرية لأسباب متعددة.

والجزائر بما تزخر به من موقع جيو-استراتيجي وثروات متنوعة باعتبارها منطقة تماس بين عمق قارة استعمرت وأخرى كانت هي المستعمر، وكونها قلب منطقة شمال افريقيا وبما تمثله من امتداد جغرافي في قلب القارة ورصيد تاريخي وثوري أكسبها مكانة الريادة والزعامة جعلها قوة محورية لها وزنها في الساحة الإقليمية المغاربية، وهو ما جعلها مستهدفة في أمنها القومي، خاصة بعد أن أصبحت منطقة الساحل الافريقي فضاء يشهد تهديدات أمنية متعددة الأوجه، وهي الاشكالية التي حاولت معالجتها في هذه الورقة البحثية من خلال البحث في أسباب الهجرة السرية من بلاد الساحل الافريقي الى الجزائر ومصدرها وماهي القوى التي تشكل تهديد للأمن القومي الجزائري والتي تستغل هذا التدفق البشري على البلاد ؟ وكيف عاجلت الدولة الجزائرية هذا المشكل لدراء التهديد المنجر عنه؟

2. الساحل الأفريقي جغرافيا وتاريخيا

عرفت منطقة الساحل في الادبيات التاريخية العربية بوصفه حزام التماس بين شمال افريقيا وافريقيا جنوب الصحراء كما كانت تعرف هذه المنطقة ببلاد السودان، فهي شريط جغرافي أفقي يمتد من المحيط الاطلسي غربا الى البحر الاحمر شرقا وتقدر مساحته بثلاثة ملايين كيلومتر مربع¹

وقد ابتليت المنطقة بموجة توسع استعماري امتدادا لما كان بدايتا باحتلال المواقع الساحلية كنقاط ارتكاز للتوغل، خاصة مع نهاية القرن 19م حيث لم تكن الدول الاروبية

(تملك) حتى 1876 من إفريقيا سوى عشر أراضيها، إذ لم تكن قد توغلت داخل القارة بصفة عامة، .

وقد كان للجزائر باعتبار امتداد إقليمها الجغرافي جنوبا في عمق الصحراء حيث تمثل حصة الأسد من حيث مساحة بلاد المغرب الصحراوية دورا كبيرا في التواصل البشري والحضاري منذ زمن بعيد بفضل شبكة من الطرق والمسالك المتعددة، تمتد من أقصى مناطق الشمال إلى أقاليم ما عرف بالسودان الغربي تشكلت نتيجة علاقات تاريخية متينة خاصة في المجال الاقتصادي من أجل تلبية حاجيات كل منطقة وهو ما ساعد على إيجاد سبيل لتواصل فكري وثقافي واجتماعي في إطار حضاري بين شمال إفريقيا والساحل الإفريقي.

تشارك الجزائر في حوالي 6280 كم من الحدود مع دول الساحل. هذه المساحة الكبيرة من الصحراء التي كانت منطقة عبور بين الشمال و الجنوب تمثل لسنوات تحديا كبيرا للسيطرة عليها² فبالنظر إلى شساعة الصحراء الإفريقية فإنه لم يتمكن أي نظام لأي من الدول التي قامت على أطرافها عبر التاريخ من فرض سيطرته ورقابته على أقاليمها و شعوبها، مما جعل المنطقة تعرف صعوبات أمنية من كرفر و فر بين قبائل عربية و بربرية للسيطرة على طرق وأقاليم معينة³ وهو ما ساعد على تشكل عصابات اللصوص وقطاع الطرق التي يترجمها سكان الصحراء من قبائل التوارق والبدو الرحل عبر التاريخ وهذا في ظل شح مصادر العيش لهذه العينة من سكان المنطقة، وهو ما كان يفرض تسليح القوافل لتدافع عن نفسها وتزويدها بمحاربين أقوى من انتماءات قبلية متنوعة، وإلزام القبائل التي تستفيد من ضريبة المرور التي كانت تدفعها القوافل بضرورة حماية القافلة وتشكيل ما يشبه شرطة استعلامات مسبقة، تتكفل بإبلاغ القافلة مسبقا بتحركات العصابات حتى تحتاط لنفسها، موازنة مع اتخاذ أدلاء أوفياء عارفين بمسالك الطرق ومواطن العصابات وهوية أفرادها وانتماءاتهم القبلية وأماكن وجود المياه والطرق الصحيحة⁴ لتجنب مختلف المخاطر والمفاجآت

ومع بداية الحملات الاستعمارية لمنطقة جنوب الصحراء والتي سبقتها جولات إستكشافية فقد أثر التوغل الاستعماري في تكوين شبه قطيعة بين الجزائر والعمق الإفريقي من

دول الساحل في الوقت الذي كانت فرنسا تخطط لإنشاء مستعمرات من المحيط الاطلنطي في الغرب الى البحر الاحمر في الشرق فمع هذا التوسع كان اعتماد الفرنسيين بالدرجة الاولى على النقل النهري في غرب إفريقيا⁵ من خلال نهرى السنغال والنيجر وكان لهذا التحول اثر مزدوج ساعد على توغل الاستعمار من الغرب الى الشرق بالنظر لصعوبة التوغل من الشمال أي الصحراء الجزائرية الى الجنوب عبر الصحراء الكبرى، وفي نفس الوقت قطع دول الساحل عن منفذها الشمالي مع ما يمثله من تاثير حضاري عربي-اسلامي في المنطقة فسعت تحويل التواصل الى شرق غرب عوض شمال جنوب.

وقد كانت السنغال التي إستولت عليها فرنسا في القرن السابع عشر بمثابة نقطة الوثوب الرئيسية للتوسع جنوب الصحاري إنطلاقا من الغرب، فوصل الفرنسيون سنة 1883 إلى مدينة بماكو ومنها شنوا حروبهم على المملك الموجودة في المنطقة.

وفي سنة 1890 شرعت فرنسا في فتح السودان الغربي كله فسيرت الحملات الحربية بمحاذاة نهر النيجر، وأقامت معازل لها على طول الطريق وبنّت خط حديدي يصل ساحل السنغال بداخلية البلاد لربطها على شكل محوري.

وفي سنة 1900 إستولت فرنسا على جميع الاقاليم الواقعة حول بحيرة التشاد وإرتكبت في سبيل ذلك من الفظائع ما تقشعر له الابدان⁶.

3. أسباب الهجرة السرية

يعد عدم الاستقرار الأمني والنزاعات الإقليمية أهم سبب لاستفحال ظاهرة الهجرة السرية وتعود هذه المشاكل الى فترة بداية استعمار القارة الافريقية حيث أثرت الحركة الاستعمارية والتي تكالبت على بلدان القارة الافريقية بعد مؤتمر برلين في تلغيم الأوضاع السياسية والأمنية وخلفت مشاكل داخلية وجوارية أصبحت تمثل قنابل موقوتة في طبيعة العلاقات الافريقية - الافريقية وفي هذا الخصوص تعد مشاكل الحدود بين الدول الافريقية من ابرز الرواسب الاستعمارية حيث لم تراعي في رسمها التركيبية القبلية لبلدان القارة ما انتج بعد ذلك مشكلة عرقية فقد فكك الاستعمار البنية البشرية لتلك البلدان من خلال رسم حدود لم

تراعي التركيبة القبلية لسكان جنوب الصحراء ما انتج بعد ذلك مشكلة الازواد ولم يرسم الحدود أخصائون ذوو معرفة تامة بما تتجازه تلك الخطوط التي تمثل حدود من مظاهر طبيعية أو بشرية بل كان أغلب أجزاء هذه المستعمرات لم يكشف بعد ولذا رسمت الحدود بين هذه المستعمرات في العواصم الأوروبية على الخرائط⁷، بعيدا عن أرض الواقع حسب الإحداثيات الفلكية فتوزعت القبيلة الواحدة على عدة وحدات سياسية وضمت الدولة الواحدة عدة اثنيات وقبائل وهذا الامر انتج عدم استقرار امني وسياسي جعل المنطقة على صفيح ساخن تتناحر المجموعات البشرية فيما بينها وتصدر مشاكلها للضفة الشمالية للصحراء الكبرى.

ورغم تخلص القارة من النير الاستعماري فقد بقيت دولها تحت سيطرة الاستعمار الجديد وفي هذا الصدد فإن الاستعمار الجديد يعد أكبر خطر على الشعوب الأفريقية⁸ حيث عمل على عرقلة أي تكامل بين بلدان الساحل بإعتبارها مستعمرات سابقة وربطها به مباشرة اقتصاديا وثقافيا وسياسيا فأى مشكلة أمنية أو سياسية لا بد ان تكون فرنسا المستعمر السابق صاحبة الكلمة الأخيرة فيها وهي صاحبة الحل والعقد بإعتبار المنطقة منطقة نفوذ لها خاصة بعد ظهور نوع من الاهتمام الأمريكي وحتى منافسة لها في المنطقة، بالاختصاص خلال عهد الرئيس الأمريكي بيل كلينتون وفي عهد خلفه بوش الصغير والذي تزعم ما أسماه الحرب ضد الارهاب من خلال إصطناع عدو يحشد التحالف ضده فكان تنظيم القاعدة الذي نشأ في أفغانستان هو المؤهل للعب هذا الدور ومن خلاله تتفرع أذرع بتسميات مختلفة في كل منطقة ترى الولايات المتحدة مصلحة لها فيها ومن خلال ذلك العودة لسياسة انشاء القواعد العسكرية والتدخلات تحت غطاء التعاون الأمني والاستخباراتي فنظرت الولايات المتحدة الأمريكية الى الارهاب كبوابة للدخول بسياسات أمنية في افريقيا وخاصة الصحراء وفي المحاور الأساسية المحيطة بالجمال الأفريقي الصحراوي في وقت وضعت القيادة المركزية الأمريكية برنامج القوة المتحدة للمهام المشتركة في القرن الأفريقي في أكتوبر 2000 لمحاربة الارهاب⁹ فالتنظيمات المسلحة (VNSAs) تشكل جانبا هاما من جوانب البيئة الأمنية المعاصرة. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في 1945، حيث أصبحت الحروب داخل الدول سائدة على

المسرح العالمي، وهي مجموعات متماسكة ومستقلة تستخدم العنف لتحقيق أهدافهم. وبالتالي، فإنها تشكل تهديدا للأمن الوطني والدولي، خاصة وأنها اكتسبت وطورت قدرات كافية لتنفيذ الهجمات الاستراتيجية حتى ضد أقوى الدول في العالم، وتعد هجمات 11 سبتمبر ضد الولايات المتحدة مثالا بارزا على ذلك¹⁰.

فاهتمام الولايات المتحدة بمنطقة الساحل برز بعد النهاية الحرب الباردة والتحول في الاتجاه التفاعلات الدولية من الشرق والغرب إلى الشمال والجنوب، تم زيادتها لأنها تسعى إلى تعزيز التوسع في التأثير للحصول على مجالات استراتيجية جديدة، خاصة في ضوء حربها على الإرهاب بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. لكنها تصادمت مع واقع وطبيعة الدور الفرنسي في أفريقيا الفرنكوفونية¹¹

وفي هذا الشأن فإن التاريخ الافريقي حافل بمظاهر عدم الاستقرار الامني الداخلي لما شهدته المنطقة من انقلابات ناجحة واخرى محاولات فاشلة وقد كان ذلك هو الشكل التقليدي في خلخلة الاستقرار السياسي - الأمني والذي ساهم في زيادة توجس انظمة دول المنطقة من بعضها وعرقلة التعاون والتكامل الايجابي فيما بينها بل وتوظيف أطراف بعض المتنازعين على السلطة لخدمة أجندات قوى دولية وإقليمية معينة فتتميز دول الساحل باتساع ظاهرة الانقلابات العسكرية والنزاعات المسلحة الداخلية وعدم الاستقرار السياسي والحروب بين الدول حول مسائل عدة أهمها الحدود، فقد تعرضت كل دول الساحل إلى انقلاب عسكري واحد ناجح على الأقل، ماعدا جمهورية السنغال، والرأس الأخضر اللتين لم تتعرضا لأي انقلاب عسكري ناجح¹² ولعل ابرز هذه الانقلابات في المنطقة.

- محاولة إنقلاب في السنغال 17 ديسمبر 1962 من وزير الدفاع و الوزير الاول ضد سنغور¹³

- تدخل فرنسا لصالح طومبالباي في التشاد ضد حركة فلورينا في الشمال وإغتايش في ليلة 12-13 أفريل 1975 ثم محاولة إنقلاب ضد العقيد مالوم في 1976

- محاولة إنقلاب أولى في 13 ديسمبر 1976 ثم إنقلاب سيني كونتشي ضد حماني ديوري في 15 أبريل 1974 وتعرض بدوره لمحاولة إنقلاب مضادة في 1976¹⁴
- فولتا العليا (بوركينا فاسو) إستولى الجيش على السلطة في 4 يناير 1966
- أطاح موسى طراوري في مالي بنظام موديبوكتا في 19 نوفمبر 1968¹⁵
- الانقلابات المتكررة في موريطانيا حيث أطاح معاوية ولد سيد احمد الطايع في 1984 بمحمد خونا ولدهيدالة ليطاح به هو الآخر في 3 أوت 2005 و في 6 أغسطس 2008: نفذ قادة الأجهزة العسكرية الرئيسية في موريتانيا بقباء الجنرال محمد ولد عبد العزيز قائد كتبية الحرس الرئاسي ومدير الديوان العسكري لرئيس الجمهورية انقلاباً عسكرياً على الرئيس المدني المنتخب سيدي محمد ولد الشيخ عبد الله.
- وتعتبر ظاهرة التأييد الشعبي للانقلابات العسكرية في الساحل من أهم المظاهر السلبية للديمقراطية، باعتبار أن ذلك النمط الانقلابي في التحول السياسي، ربما يمثل الخيار الأمثل لتجنب مخاطر الحروب الأهلية أو التدخل الأجنبي، وهو ما يعرض موارد المجتمع وطاقاته للهدر والتبديد، ففي ظل حالات الاستبداد والتسلط السياسي، وإغلاق كافة السبل أمام قوى المعارضة للتغيير السلمي والإصلاح الديمقراطي، يُنظر للمؤسسة العسكرية بحسبانها المؤسسة الوطنية التي تمتلك قوة مادية حقيقية للتغيير. ولا أدل على ذلك، التأييد الشعبي المنقطع النظير لانقلاب النيجر سنة 2010، بالرغم من أن الشعب كان مؤيدا للرئيس "مامادوتاندجا" Mamadou Tandja، قبل حدوث الانقلاب. كما أن السلوك الانتخابي لشعوب دول المنطقة خاضع في الغالب لمفاهيم عرقية واقتصادية واستراتيجية، عوضا عن المعنى الصحيح له، والذي يقوم على مدى كفاءة القادة السياسيين، ومدى تنظيم وطموح برامج الأحزاب السياسية المختلفة، ومدى تلبية حاجات شعوب المنطقة. تتميز دول شمال افريقيا بعقيدتها الجالية الصحراوية فبرغم كونها دولا ذات حدود مع اوروبا عبر البحر الابيض المتوسط فإن قدراتها الترابية تأتي من عمقها الصحراوي¹⁶ فيبلغ الشريط الحدودي الذي يربط مالي بالجزائر حوالي 1376 كلم¹⁷ ومع بروز المشاكل الامنية في بلدان الساحل الافريقي بعد انهيار نظام القذافي

أصبح باب المنافسة مفتوح للمليء الفراغ خاصة مع ظهور نوع من الاهتمام الأمريكي وتزعمه لما سماه الحرب ضد الارهاب، والعودة لسياسة انشاء القواعد العسكرية والتدخلات تحت غطاء التعاون الأمني والاستخباراتي¹⁸

ومع استمرار مشكل قديم هو في حد ذاته احد نتائج عدم الاستقرار وكنتيجة للإستعمار ونقصد به التخلف الاقتصادي والحضاري حيث تتذيل بلدان الساحل ترتيب دول العالم في مجال التنمية الاقتصادية ومعدلات النمو والرعاية الصحية رغم ما تزخر به من ثروات وتنبوء المراتب الأولى من حيث انتشار البطالة والامية وعليه فإلى جانب هذه المشاكل مع طبيعة المنطقة من مناخ قاس وتضاريس صحراوية فقد أصبحت بلاد الساحل الافريقي منطقة طرد للسكان

الى جانب الحرب الاهلية في شمال مالي أو أزمة توارق الأزواد والتي تعتبر نتاج صريح للإرث الاستعماري، حيث يرجع محدها التاريخي العام إلى سنة 1963 بعد استقلال كل من ليبيا، والنيجر وبوركينا فاسو، والجزائر¹⁹ عندما وجدت القبائل الترقية المتمركزة في الصحراء الكبرى نفسها منقسمة بين عدة دول اتفقت على مبدأ عدم المساس بالحدود الموروثة عن الاستعمار²⁰ يعتبر طوارق مالي ونيجر الاكثر تجمعا في المنطقة الساحلية حيث يشكلون من 20 الى 30 بالمائة من اجمالي سكان البلدين ويتمركزون في مالي في تمبوكتو، أزواد، غاو وكيدال وعلى امتداد صحراء مالي حيث 3/2 من مساحة البلاد²¹، فظهرت تنظيمات وحركات تسعى للدفاع عن الهوية التارقية في مالي وأخرى دخلت على الخط استثمارا في الاوضاع المضطربة، وقد ازدادت خطورة هذه الحركات التمردية مع اتصال هذه القبائل بالجماعات الإرهابية المنحدرة من شمال أفريقيا من جهة، وعصابات التهريب والمخدرات التي تنشط في المنطقة من جهة ثانية، كما تستغل هذه الجماعات حالة الفقر المدقع التي يعيشها شباب المنطقة لإقناعهم بالانضمام إليها²² وكان أبرزها.

1.3 جماعة أنصار الدين الإسلامية، وهي احد افرع تنظيم تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي (AQIM) التي هي تتركز في شمال غرب أفريقيا مثل الملاذون والحركة من أجل

الوحدانية والجهاد في غرب أفريقيا (MUJWA)؛ وبوكو حرام في شمال شرق البلاد نيجيريا²³ كان يُطلق عليها في البداية الجماعة السلفية للدعوة والقتال قبل أن تصبح تابعةً لتنظيم القاعدة في العام 2007 ويعزى تحوّلها لتنظيم القاعدة إلى النكسات الكبرى التي منيت بها في الجزائر²⁴ منذ أن أنشأت الجماعة السلفية للدعوة والقتال قاعدتها في شمال مالي في العام 2003، ترسّخت جذور التنظيم في المجتمع، فعمل بصبر على بناء وتوسيع شبكة من الروابط الأسرية، والدعم الاجتماعي، والعلاقات السياسية، والتبادل الاقتصادي. وعلى مرّ السنين، أصبحت الجماعة التنظيم الإرهابي والإجرامي الأفضل تمويلاً والأكثر ثراءً وذلك بفضل ما فرضته على عمليات تهريب المخدرات عبر الحدود، والفديات التي ابتزّتها من الحكومات الغربية لإنقاذ حياة المختطفين من أبنائها تمبوكتو، على سبيل المثال، هي معقل التنظيم والمكان الذي بنى فيه الشبكة الأولى من تحالفاته الاجتماعية والسياسية²⁵ يتّضح الدور المهيمن للتنظيمات الإجرامية والإرهابية في ديناميكيات الصراع بشكل أفضل من خلال التحالف بين جماعة أنصار الدين Mula وتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي

2.3 الحركة الوطنية الأزوادية وهي حركة انفصالية من عرقية الطوارق تشكلت في أكتوبر 2011 بهدف تحقيق قدر أكبر من الحكم الذاتي للجزء الشمالي من مالي²⁶. وأزواد هو الاسم الذي يستخدمه الطوارق للإشارة إلى الإقليم الشمالي في مالي. وقد إلى بناء شبكة معارضة محلية، وحشد الدعم الدولي لمشروع استقلال الشمال عن مالي. تمحورت دعوى الحركة للانفصال حول المظالم القائمة منذ وقت طويل. وغالباً ما اتُّهمت العاصمة بالإهمال الاقتصادي المتعمّد للشمال في نهاية المطاف، كانت هناك حاجة لوجود قوة خارجية للبحث على القيام بإجراء حاسم، وأصبحت الحرب الليبية التي أطاحت معمر القذافي عام 2011 الحافز الذي عجل بتحوّل شبكة الحركة الوطنية الأزوادية إلى تمرد. فقد عاد مئات الطوارق الذين خدموا في قوة القذافي الأفريقية، التي أنشئت عام 1972²⁷، كوحدة خاصة تسمى الوحدة 32 بقيادة نجل الزعيم الليبي الراحل خميس القذافي والذين قاتلوا ضد الثوار الليبيين، إلى منازلهم في شمال

مالي . بعض هؤلاء المقاتلين هم من نسل الطوارق الذين انتقلوا إلى ليبيا موجة الجفاف التي حدثت عام 1984، أو ممن فروا من قمع الحكومة المالية²⁸

خاصة وان مالي الآن تعد الحلقة الأضعف في منطقة الساحل والأكثر عرضة لزعزعة الاستقرار على يد المتمردين، خصوصاً مع تواصل النزاع العرقي مع ظهور حركات التمرد الانفصالية بين حين وآخر منذ العام 1962 حتى قبل اندلاع النزاع في ليبيا في فبراير 2011²⁹ حيث ان النظام الليبي كان قد تبنى قضية الأزواد واحتضن تنظيماتهم أين عقد مؤتمر سبتمبر 1980م بمدينة الخمس لمناقشة القضية الأزوادية وفي سنة 1982 م عادوا الى ليبيا أين تمت إعادة تنظيم الحركة من خلال مؤتمر في 1987م نوقشت فيه شؤون الحركة الأزوادية وفي الفترة ما بين 1988-1989 تم تشكيل أول خلايا سرية للحركة في مدن كيدال وتمبكتو وفي شمال مالي ثم تيسس الحركة الشعبية الأزوادية MPA بقيادة عياد أق فحاولت العديد من منظمات الطوارق التمرد ضد السلطة المركزية في باماكو غير أن التسلسل الدراماتيكي للأحداث أدى بالتدريج إلى سيطرة متمردى الطوارق على الشمال وهم الذين مارسوا ضغوطات منذ وقت طويل للحصول على الحكم في الشمال، والذي تحوّل بسبب الحرب الليبية إلى تمرد مسلح مكتمل بدأت الأزمة في 17 يناير 2012 حين هاجمت الحركة الوطنية لتحرير الأزواد و مناكاً عدداً من المدن المالية ومن بينها . تساليت لواقعة قرب الحدود مع النيجر وعلى الحدود مع الجزائر

وفي 22 مارس 2012 وقع انقلاب عسكري في العاصمة باماكو وسيطر عسكريون في الجيش النظامي المالي على السلطة فعجل المجلس العسكري الذي أطاح بالرئيس في محاولة لإنقاذ سلامة الدولة ظاهرياً حسب منفذي الانقلاب. العسكري، في تفكك الدولة، وأدخل الجيش والدولة ككل في حالة من الفوضى³⁰

3.3 حركة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا وهي فرع منشق عن تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي ولا يُعرف عنها سوى القليل جداً من المعلومات برزت لأول مرة على الساحة بعد

عملية اختطاف مذهلة لثلاثة سياح أوروبيين من مخيمات تندوف التي تخضع إلى حراسة مشددة في الجزائر في أكتوبر 2011³¹

4. تداعيات الهجرة السرية على الامن القومي الجزائري

أصبح عدم الاستقرار الأمني و بروز استغلال المنطقة في النشاط الارهابي والتهريب تهديدا للحدود الجنوبية للجزائر وزاد من تحوّلها على امنها القومي حيث ترى ان اي تغيير في احوال المنطقة يهددها ويمسها عن قرب لما تشكله من عمق استراتيجي وتحديات امنية لاستقرار الامن القومي³²

ولئن تغاضت الجزائر عن تدفق النازحين من شمال مالي الى أراضيها لأسباب إنسانية فإن هذه الموجات البشرية تحولت من لاجئين إلى مستوطنين رغم استقرار الوضع في بؤر التوتر بل وتبعته موجات بشرية من بقية دول الساحل وحتى من وسط القارة.

فقد أدت العديد من العوامل إلى تفشي ظاهرة نزوح الأشخاص من دول الساحل وغيرها، وأهم هذه العوامل الصراعات الداخلية المبنية على الصراعات بين الأعراق، وحالة عدم الاستقرار السياسي، والنزاع حول السيطرة على الموارد، والكوارث الطبيعية، بالإضافة إلى انعدام الأمن الغذائي. وبالرغم من عدم وجود إحصائيات دقيقة حول عدد النازحين، إلا أنه من الواضح أن أعدادهم تقدر بالملايين نتيجة الحروب الأهلية المستمرة، وحالة عدم الاستقرار التي تعاني منه المنطقة، وتعتبر مجموعة النازحين داخليا في الساحل من أكثر المجموعات المعرضة للخطر في العالم، حيث إنهم معرضون لهجمات مسلحة مستمرة، وإلى نقص الغذاء، والعنف الجنسي، والاستغلال، والتجنيد الإجباري، إضافة إلى الأمراض المتفشية. ويصارع العديد منهم للعودة أو للاستقرار والاندماج مجددا في أوضاع تفتقر إلى البنى التحتية، والخدمات الأساسية، ومؤسسات الصحة، والمؤسسات التعليمية³³

فمن بلدان المغرب الخمس نجد ثلاث دول تملك عمق في الصحراء الافريقية الكبرى وهي الجمهورية الاسلامية الموريتانية وليبيا والجزائر، غير أن انتقال النازحين إلى المغرب الأقصى عبر موريتانية محفوف بالمخاطر بالنظر إلى عدم الاستقرار في منطقة الصحراء الغربية والإجراءات

الأمنية المشددة التي يفرضها نظام المخزن المغربي في المنطقة، أما عبر ليبيا ورغم كونها دولة بتروولية تتوفر فيها سبل كسب الرزق إلا أن التدهور الأمني في المنطقة يعرض النازحين لمخاطر كبيرة ، أما عبر الجزائر فمع طول امتداد الشريط الحدودي فإن الاستقرار الأمني وتوفر فرص العمل وموقعها في قلب بلاد المغرب بما يوفره للمهاجرين من فرص اختيار منطلق الإبحار إلى أوروبا سواء من السواحل الجزائرية مباشرة أو عبر دخول التراب التونسي أو المغرب الأقصى كل هذا يجعل من الجزائر الوجهة المفضلة لهؤلاء المهاجرين .

وفي هذا الصدد فإن نزوح عناصر من بلدان الساحل إلى الجزائر ليس حديثا فأراضيها الموعلة في القارة الافريقية تجعل من الجزائر معبرا لا بد منه للراغبين في الهجرة السرية إلى أوروبا عبر أقرب النقاط إليها خاصة تونس والمغرب الاقصى، لكن مع الوقت تحولت الجزائر إلى مكان استقرار وليس عبور، وتحول هؤلاء من لاجئين إلى مهاجرين ومناطق تجمعهم من مخيمات لاجئين إلى ما أصبح يعبر عنه بقرية إفريقية أو أفريكا تاون، تضم إثنيات مختلفة يسودها نظام قبلي يخضع لضوابط عرفية، فقد وجدت تامنغست نفسها امام هذا اللجوء سواء الفردي او الجماعي في ضغوطات بسبب تزايد الكثافة السكانية حيث باتت تعرف بأنها العاصمة الافريقية فزاد سكانها من 3 آلاف نسمة سنة 1960 الى 65 ألف سنة 1998 منهم 49 ألف من جنسيات مختلفة³⁴ وقد حملوا معهم بعض الممارسات السلبية من مظاهر التسول كحرفة ممتهنة وأسلوب معيشة إلى جانب ممارسات أخرى لا يتقبلها المجتمع المحلي ، كما أن عمليات ترحيل هؤلاء بالآلاف أصبحت تكلف الدولة أموال باهضة، كما أدخلتها في شبه حرب مع عصابات تهريب البشر، وقد استدعى الامر نقاشات برلمانية حيث قدرت أعداد هؤلاء بـ 25 ألف من حوالي 23 جنسية في يونيو 2014 حسب التقارير³⁵ .

وقد أخذت تستغل عمليات الترحيل للتشهير بالجزائر بدعوى عدم احترام حقوق الانسان من طرف أطراف كانت هي السبب الرئيس في اندلاع موجة الهجرة هذه وهي فرنسا بمنظمتها التي تدعي الدفاع عن حقوق الانسان إلى جانب المغرب الاقصى من أجل إحراج الجزائر فيحاولون الترويج لاثامات لا أساس لها.

5. سبل معالجة مشكل الهجرة

أصبح الساحل في العقود الماضية، مصدرا للتهديدات الأمنية للجزائر، والحكومة الجزائرية تدرك أن البلاد تقع في منطقة تشهد فيها العديد من الأزمات مثل الصراعات العرقية المتزايدة والاقتصادات الضعيفة والهشة وعلاوة على ذلك، أصبح الساحل جنة منقذة للإرهابيين ومنظمات الجماعات الإجرامية كما هو مشار إليه في تقارير الأمم المتحدة، حيث 30 إلى 40 % من المخدرات الاتجار في العالم يمر عبر هذه المنطقة فهي ثاني أكبر سوق سوداء للاتجار بالأسلحة؛ أيضا، يعتبر المكان المفضل للجماعات الإرهابية مثل القاعدة وبوكو حرام. وهذا الوضع الأمني الهش دفع الحكومة الجزائرية إلى بناء نخج آمي عام تجاه هذه المنطقة لمواجهة كل أنواع التهديدات التي قد تهدد أمنها القومي³⁶

ومن أجل معالجة المشكل من جذوره باجتماع مصدر المشكل اعتمدت الجزائر مقارنة أمنية-سياسية فباعتبار مبدأ حفظ السلم والأمن الدوليين من أهم المبادئ التي تحكم المجتمع الدولي، وقد التزمت به كافة الدول وكرسته في منظومتها القانونية، والجزائر باعتبارها عضو من أعضاء هذا المجتمع فقد كان لها دور جد فعال ومهم في حل عدة نزاعات مسلحة، إما عن طريق وساطتها المباشرة أو غير المباشرة إن مقارنة الجزائر لمنطقة الساحل ليست جزئية ولا دورية، فبالنسبة لمنطقة الساحل يعتبر مدى العلاقات بين البلاد ومنطقة جنوب الصحراء الكبرى طويلة الأمد ومتعددة الأوجه وترتبط ارتباطا وثيقا بالرؤية الشاملة للقيادة الجزائرية، سواء من حيث الفضاء الجيو-ستراتيجي الإقليمي أو طبيعة الشؤون الدولية وتطوراتها السريعة³⁷ فقد وضعت الجزائر استراتيجية انبثقت عن مذهبها الخاص. وقد استلهمت هذه العقيدة من تجربة القيادة الجزائرية، التي أعطت الأولوية للتصميم على الاعتماد على موارد شعوبهم، كما فعلوا خلال حرب التحرير ضد الاستعمار الفرنسي، وكذلك الحفاظ على الاستقلالية صنع القرار، كما جرت العادة بعد استقلال³⁸

وفي هذا الإطار قامت الجزائر بتعزيز قدراتها العسكرية ورفع مستوى جاهزية قواتها المسلحة للذود عن حدودها الجنوبية بالتوازي والحضور الدائم في معالجة قضايا بلدان الساحل

سلميا، ملتزمة بمبدأ الحياد بين اطراف الصراعات وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، وهي إحدى المبادئ الأساسية للسياسة الخارجية للجزائر حيث لا يعني السلبية إزاء ما يجري في فضاءها الجيو- سياسي بل يعتمد على مساعي الوساطة وتسوية النزاعات بتبني الخيارات السلمية، انطلاقا من مبدأ ابداء الجزائر تحفظها من التدخل في الشؤون الداخلية أو من الحل المقترح من خارج القارة والذي اثبت أنّ الحياد كان رأيا صائبا، أبعد الجزائر عن التورط في تعقيدات وتحديات أمنية هي في غنى عنها.

ومن الناحية الثنائية، أعادت الجزائر تفعيل لجنة الحدود مع النيجر لضمان تأمين المنطقة الحدودية وضمان التنسيق بين الأجهزة الأمنية في كلا البلدين في إطار آلية التعاون بموجب مذكرة تفاهم موقعة في الجزائر العاصمة يوم 30 أكتوبر 1997.³⁹

كما استضافت اجتماع اللجنة الثنائية الجزائرية - المالية حول الوضع في شمال مالي في أبريل 2014، والذي حضرته مالي والنيجر، موريتانيا وبوركينا فاسو وعلى الصعيد الإقليمي، فأنشأت الجزائر بذلك آلية التعاون مع شركائها في منطقة الساحل بشأن مكافحة الإرهاب⁴⁰

والتزاما بمبادئ سياستها الخارجية فقد لعبت الجزائر دورا هاما من أجل التوصل إلى إبرام اتفاق للسلم والمصالحة بين فرقاء دولة مالي تناسقا مع سياسات الاتحاد الأفريقي وأولويات الدبلوماسية الجزائرية، والذي انبثق عن وساطة جزائرية مثمرة جعل الوضع في هذا البلد الجار يشهد تحسّنا نوعيا بفضل الدور الجزائري، وهذا بعد التدهور الأمني الذي عرفه البلد والذي كان له تأثير كبير على المنطقة وشكل تهديد للأمن القومي الجزائري

فانتهجت الجزائر ثلاثة مسارات لمحاولة وقف تداعيات أزمة شمال مالي:

أول هذه المسارات، سياسي، من خلال عقد لقاءات لدراسة وسائل التكفل بمطالب سكان المناطق الحدودية بجنوب الجزائر والتي يغلب عليها عنصر الطوارق وهو العنصر العرقي نفسه للمتمردين شمال مالي.

والثاني، أمني، ويهدف إلى منع تسلل الجماعات الجهادية نحو ترابها بفعل العملية العسكرية شمال مالي.

والثالث، دعوي، لتفادي تبعات الفكر المتطرف الذي انتشر في الساحل الأفريقي. لوجستياً، ومالياً، واستشارياً. وعلى الرغم من تعدد الأهداف وتداخل المصالح الإقليمية بين الدول فقد حاولت الجزائر دائما تفادي التورط في الشؤون الداخلية لمالي والسعي لحل مشكل الهجرة بالتشاور مع الشركاء وكل اطراف الازمة من اجل الحد من تفاقمها اذا ما كان الحل عسكريا وهو ما اعتمدت عليه فرنسا في استراتيجيتها في التعاطي مع الازمة في مالي أساساً من خلال تدويل الازمة، وحشد الدعم الإقليمي والدولي لمساندة الحكومة المركزية في مالي، إضافةً إلى اعتمادها على الجهد العسكري لبلدان غرب أفريقيا مع دعمها غرب أفريقيا ومالي، طلبت الحكومة المالية رسمياً مساعدة عسكرية من فرنسا، الأمر الذي ساهم في أن تبرز فرنسا تدخلها بأنه جاء لمساندة دولة صديقة وليس انتقاصاً من سيادتها، ويهدف طرد المجموعات الإسلامية المتطرف⁴¹، وهو ما أعطى غطاء شرعي للتنظيمات الإرهابية والجماعات المتطرفة للتحرك بدعوى الجهاد وبذلك تعقيد الازمة ومزيد من الموجات البشرية المهاجرة فلجئت الجزائر الى انشاء مراكز إيواء في المناطق الحدودية لتقديم الخدمات الإنسانية، فالسياسة الفرنسية تجاه أفريقيا ظلت مستمرة منذ الحقبة الاستعمارية، على أساس حماية مصالحها، وتعزيز نفوذها وعزلها عن منافسيها. اقتصادياً، فتسعى لتأمين المصالح الاقتصادية في بلدان الساحل والصحراء، مثل تشاد والنيجر، مالي وليبيا والجزائر، حيث تمتلك فرنسا حصة الأسد من البورصات التجارية مع هذه الدول ويهيمن عليها الموارد الطبيعية، مثل اليورانيوم في النيجر والذهب في مالي، جنباً إلى جنب مع ضخمة الاستثمارات في قطاعي النفط والغاز في الجزائر. بالإضافة إلى ذلك، الأجنبي الفرنسي يسعى صانعو السياسات إلى تقويض الصينيين من التوسع الاقتصادي والتجاري في شمال أفريقيا، ومنطقة الساحل، وخاصة في قطاع البناء والتشييد، والصادرات الرخيصة، البنية التحتية والنفط⁴²

6. خاتمة

ان مسألة الهجرة واللجوء تعتبر من القضايا الشائكة في العلاقات الدولية بين الشعوب وقد ساهمت قديما في تغيير النسيج الاجتماعي لبعض البلدان، ومن خلال ما سبق يمكن ان نستنتج بعض النتائج منها

- يعد عدم الاستقرار الأمني والنزاعات الإقليمية أهم سبب لاستفحال ظاهرة الهجرة السرية، ويتجلى ذلك في الصراعات القبلية والنزاعات الحدودية الموروثة عن الاستعمار.
- تعد منطقة الساحل الواسعة جغرافيا والتي تفتقر الى التنمية ابتليت بالاستعمار الفرنسي ضعف الأنظمة السياسية يجعلها فضاء مناسباً للنشطة الغير قانونية
- الأهمية الجيو استراتيجية للساحل الافريقي والذي يجاور العمق الجزائري يحتم على الجزائر اليقظة المستمرة ومراقبة ما يجري فيه
- دخول القوى الكبرى في التنافس على مناطق النفوذ زاد من تعفن الوضع الأمني وتعمقه وفق مصالح هذه القوى ممثلة في فرنسا المستعمر القديم، والولايات المتحدة الامريكية خاصة في ضوء حربها على الإرهاب بعد أحداث 11 سبتمبر 2001.
- عدم الاستقرار السياسي بسبب الانقلابات العسكرية ساهم في تأخر عجلة التنمية الاقتصادية، وتحقيق التوازن الجهوي والعدالة الاجتماعية مما فاقم من ظاهرة الهجرة.
- تشكل التنظيمات الانفصالية والجماعات (الجهادية) يعد أبرز مظهر للتهديد الأمني في المنطقة يتخذ طابع إرهاب دولي، ويفتح الباب امام التدخل الخارجي بدعوى محاربه او حماية المصالح الحيوية للقوى الكبرى.
- الجزائر الأولى مغاريا في استقبال النازحين بسبب مساحها الجغرافية الموعلة في بلاد الساحل والاستقرار الأمني الذي يميزها بالمقارنة مع ليبيا وموريتانيا وتحسن وضعها الاقتصادي، وهو ما جعل النازحون يتحولون من لاجئين يتمتعون بحماية الدولة التي لجأوا اليها ريثما تستقر الأوضاع في بلدانهم الى مهاجرين يبحثون عن تحسين

أوضاعهم، والاستزاق في بلاد المهجر بمختلف الوسائل بما في ذلك الوسائل الممنوعة قانونا كالتسول والاتجار الغير مشروع والاحتبال وغيرها.

- سعت الجزائر الى معالجة المشكل وفق مقاربة سياسية تعتمد على الوساطة والحوار لحل النزاعات بالطرق السلمية لإبعاد التدخل الأجنبي بكل اشكاله، وتوفير الظروف لعودة اللاجئين الى مواطنهم في ظل احترام حقوق الانسان.
- تستغل بعض الأطراف من انظمة سياسية وتنظيمات دولية الوضع للتشهير بالجزائر وكيل الاتهامات ضدها تحت غطاء حقوق الإنسان، ومعارضة ترحيل اللاجئين في الوقت الذي ترتكب فيه خروقات على أراضيها.

7.الهوامش

- ¹ كريم مصلوح مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أبو ظبي ط1، 2014، ص9
- ² Lotfi Sour, The Algerian strategy in African Sahel : towards a regional security architecture, مجلة مدارات سياسية مجلد 2، العدد7، ديسمبر، 2018 ص171
- ³ إلياس بن عمر الحاج عيسى، "وارجلان دراسة في النشاط الاقتصادي والحياة الفكرية في الفترة (4-10 هـ / 10-16م)"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف عبد العزيز لعرج، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص87.
- ⁴ إلياس بن عمر، مرجع سابق، ص89
- ⁵ زاهر رياض إستعمار إفريقيا الدار القومية للطباعة والنشر مصر 1965 ص420
- ⁶ ي، سافلييف: موجز تاريخ إفريقيا، تر أمين الشريف، دار الطباعة الحديثة الاردن، ص60
- ⁷ زاهر رياض، مرجع سابق، ص385
- ⁸ موجز تاريخ إفريقيا ي سافلييف، فاسلييف ترجمة أمين الشريف دار الطباعة الحديثة الاردن ص118
- ⁹ كريم مصلوح، مرجع سابق، ص233

¹⁰ Mohamed Amine Souyad, La The Rise of Violent Non-State Actors in the Sahel: The Case of Al-Qaeda in the Islamic Maghreb (AQIM), Journal of Political Orbits, Volume: 04, N°: 01, 2020, p 84 – 107,p85

¹¹ Smail Djohra, The Franco-American rivalry in the African Sahel,DIRASAT WAABHATH Review THE ARABIC JOURNAL OF HUMAN AND SOCIAL SCIENCES,Special Issue Vol.13 N°3July 2021/ Dhul Hijjah 1442 p91

¹² ياسين شكيمة، مصادر الفقر في دول الساحل الأفريقي: وفق منظور الأمن الإنساني، مجلة العلوم القانونية والسياسية المجلد 0العدد 1 افريل 2019 ص 230،257 ص 241

¹³ مولود حمروش الظاهرة العسكرية بإفريقيا السوداء الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 ص 44

¹⁴ نفسه ص 50

¹⁵ نفسه ص 69

¹⁶ كريم مصلوح، مرجع سابق، ص 43

¹⁷ ليلى قارة، الوساطة الجزائرية في النزاع الداخلي المالي 1963-2010، رسالة مقدمة لنيل شهادة

الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، تخصص دبلوماسية، جامعة الجزائر 3، كلية العلوم السياسية

والاعلام، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جمادي الثاني 1432هـ / ماي 2011، ص 65

¹⁸ ياسين شكيمة، 246

¹⁹ محمد الأمين بن عائشة الدبلوماسية الجزائرية والمعضلة الأمنية في مالي: بين الاستمرار والتغير المجلة العربية

للعلوم السياسية ص 103

²⁰ محمد الأمين بن عائشة، المرجع السابق ص 104

²¹ ليلى قارة، مرجع سابق ص 58

²² ياسين شكيمة، ص 241

²³ Mohamed Amine Souyad, p94

²⁴ بونوار بوخرص، الجزائر والصراع في مالي، مؤسسة كانغي للسلام الدولي 2012، ص 12

²⁵ بونوار بوخرص، مرجع سابق، ص 25

²⁶ Mohamed Amine Souyad, p93

²⁷ محمد الأمين بن عائشة، مرجع سابق، ص 103

²⁸ نفسه، ص 103

²⁹ محمد الأمين بن عائشة، ص 102

³⁰ محمد الأمين بن عائشة، مرجع سابق، ص 102

³¹ بونوار بوخرص، مرجع سابق، ص 13

³² ليلي قارة، مرجع سابق، ص 66

³³ ياسين شكيمة، مصادر الفقر في دول الساحل الأفريقي: وفق منظور الأمن الإنساني، مجلة العلوم القانونية

والسياسية المجلد 0 العدد 1 افريل 2019 ص 230، 257، ص 245

³⁴ ليلي قارة، مرجع سابق، ص 71

³⁵ تم ترحيل 13 ألف شخص في 2016

³⁶ Lotfi Sour, The Algerian strategy in African Sahel: towards a regional security architecture, مجلة مدارات سياسية مجلد 2، العدد 7، ديسمبر، 2018p171

³⁷ ibid, p162

³⁸ Ibid, p164

³⁹ Ibid, p166

⁴⁰ ibid, p167

⁴¹ محمد الأمين بن عائشة، مرجع سابق، ص 106

7. قائمة المراجع:

المؤلفات

- 1-بونوار بوخرص، الجزائر والصراع في مالي، مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي 2012،
- 2-زاهر رياض إستعمار إفريقيا الدار القومية للطباعة والنشر مصر 1965
- 3-كريم مصلوح مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أبو ظبي ط1، 2014،
- 4- سافلييف، فاسلييف موجز تاريخ إفريقيا ترجمة أمين الشريف دار الطباعة الحديثة الاردن
- 5-مولود حمروش الظاهرة العسكرية بإفريقيا السوداء الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981

المقالات

- 1-مُجد الأمين بن عائشة الدبلوماسية الجزائرية والمعضلة الأمنية في مالي: بين الاستمرار والتغير
المجلة العربية للعلوم السياسية

المذكرات الجامعية

- 1-إلياس بن عمر الحاج عيسى، "وارجلان دراسة في النشاط الاقتصادي والحياة الفكرية في الفترة (4-10 هـ / 10-16م)"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، 2008-2009،
- 2-ليلى قارة، الوساطة الجزائرية في النزاع الداخلي المالي 1963-2010، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، تخصص دبلوماسية، جامعة الجزائر 3، كلية العلوم السياسية والاعلام، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جمادي الثاني 1432 هـ / ماي 2011

Mohamed Amine Souyad, La The Rise of Violent Non-State Actors in the Sahel: The Case of Al-Qaeda in the Islamic Maghreb (AQIM), Journal of Political Orbits, Volume: 04, N°: 01, 2020, p 84 – 107

⁴²Smail Djohra, p86